السنة الأولى ليسانس (أدب عربي)

مادة: النص الأدبي القديم

السداسي الثاني (نثر)

المحاضرة السادسة

المجموعة "أ" + المجموعة "ب"

الأستاذ عبد القادر شريف حسني بالتنسيق مع الأستاذ إبراهيم بوشريحة

6/ الحكاية على لسان الحيوان:

يُجمع أغلب الدارسين في تعريفهم لحكاية الحيوان، على أنها شكل من أقدم أشكال الأدب الشعبي، وهي حكاية تدور على ألسنة الحيوانات والطيور والحشرات التي تسلك فيها سلوك الإنسان، محتفظة –فضلا عن ذلك– بسماتها الحيوانية، وقد تجيء هذه الحكايات على لسان النبات أو الجماد، وتقدم في أبسط صورها تفسيرا أو تعليلاً، أو ربما رؤية للإنسان الأول إزاء الظواهر الطبيعية، وقد ترتقي ليصبح الحيوان فيها قناعا لمنطق إنساني تُطرح من خلاله قضايا خُلقية أو تعليمية أو نقدية أو فكرية أو فلسفية"[1]، ويذهب البعض إلى أن حكايات الحيوان قد تفرعت إلى فرعين، هما: الخرافة أو خرافة الحيوان، وملحمة الحيوان أو ملحمة الوحوش[2].

1/ الخرافة / خرافة الحيوان:

الخرافة لغة: هي "الحديث المستملح من الكذب، وقالوا: حديث خرافة[3]، وقد ذكر ابن الكلبي في قولهم حديث خرافة: أن خرافة من بني عذرة أو من بني جهينة، اختطفته الجن، ثم رجع إلى قومه، فكان يحدث

---

[1]– ينظر عبد الحميد بن يونس، الحكاية الشعبية، صص: 29/ 30. نقلا عن سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، مذكرة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2001، ص: 4.

[2]– ينظر المرجع نفسه، ص: 16.

[3]– قال الإمام أحمد في مسنده 6 . 157: (...) عن عائشة، قالت: حدث رسول اللهﷺ ذات ليلة نساءه حديثا، فقالت: امرأة منهن: يا رسول الله، كان الحديث حديث خرافة، (أي مستملحا) فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلا من عذرة، أسرته الجن في الجاهلية، فمكث فيهم دهرا طويلا، ثم ردوه إلى الإنس، فكان يحدث الناس بما رأى فيهم من الأعاجيب، فقال الناس: حديث خرافة.

بأحاديث مما رأى يعجب منها الناس، فكذبوه، فجرى على ألسن الناس[4]، وجاء في الأمثال " أمحل من حديث خراف"[5]، وذهب البعض الأخر إلى أن الخرافة من اختراف السمر؛ أي استطرافه[6].

الخرافة اصطلاحا: شكل من الأشكال الأدبية التي اعتمدها الحكماء ليصلوا بواسطتها إلى الأذهان والخواطر، ويضمنوها الحكم والمواعظ"[7]، وهي حكاية قصيرة، شعرية أو نثرية تحكى على لسان الحيوان أو النبات أو الجماد، وقد تحكى على ألسنة شخصيات إنسانية، تتخذ رموزا لشخصيات أخرى[8]، ولأن هذه الحكاية تنحو منحى الرمز في معناه العام، فإن عددا من الدارسين أطلق عليها مصطلح: "حكاية الحيوان الرمزية" ولأنها تحمل مضمونا سياسيا أو اجتماعيا نقديا؛ فقد وصفت بأنها ضرب من الحكاية القناع[9]، ولما تؤديه هذه الحكاية من غرض تهذيبي أو تعليمي؛ فقد آثر بعض الدارسين تسميتها "حكاية الحيوان التهذيبية"، أو "حكاية الحيوان التعليمية"، أو "الخرافة الأخلاقية"[10].

ويعرف جبور عبد النور الخرافة على أنها "حكاية قصيرة، نثرية أو شعرية، تبرز أحداثا وشخصيات وهمية، تتراءى من خلالها أحداث وشخصيات واقعية، بحيث أن الذهن يتتبع عند قراءتها أو سماعها المعنى الظاهر والمعنى الباطن في الوقت نفسه، وقد يكون أبطالها أناسا أو حيوانات أو حشرات أو معادن"[11].

ويهمنا هنا أن نقول: إن خرافة الحيوان كانت أوفر حكايات الحيوان حظا في التأليف والمحاكاة والترجمة والاستلهام على امتداد الزمان، ومن ذلك خرافات "كليلة ودمنة" التي عرفت الحياة مرة تلو الأخرى، شعرا ونثرا، على أيدي كتاب قدماء ومحدثين، وذلك بلغات مختلفة، وأساليب متنوعة، وبصور كثيرة[12].

وقد احتضنت خرافة الحيوان هواجس النفس الإنسانية ومؤرقاتها، كما امتصت كل ما فاضت به الروح البشرية من توق إلى إصلاح الفرد والمجتمع، ورغبة في بث الأخلاق والآداب والقيم، وسعي إلى تحقيق

---

[4]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (خرف).

[5]-أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، ج2، ص: 295.

[6]- المصدر نفسه، ص: 295.

[7]- المقدسي، كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهار، ص: 14.

[8]- ينظر عبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية، ص: 33.

[9]- ينظر محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي، ص: 190.

[10]- ينظر كل ذلك سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين (4/3) الهجري، مذكرة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2001، ص:22، وما قبلها.

[11]- جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص: 101.

[12]- ينظر سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، ص: 32.

العدل والمساواة، وهي فضلا عما تحمله من قيمة أدبية، استطاعت بشكلها القائم على لسان الحيوان أو النبات أو الجماد، النفاذ إلى الإنسان من حيث هو إنسان، في كل زمان وفي أي مكان، متخطية حواجز المعتقد واللغة، وموفرة أقنعة ورموزا أدبية قادرة على التعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية، دون اصطدام بالسلطة أيا كان نوعها([13]).

ويذهب "لافونتين" إلى تقسيم الخرافة إلى قسمين، هما: الجسد والروح؛ أما الجسد فهو الجانب المادي، وتمثله الحكاية بما تشتمل عليه من أقوال وأفعال تنسب إلى الحيوان. وأما الروح فذلك الجانب المعنوي، الذي يتجلى في المغزى الخلقي أو العبرة التي تحملها الخرافة أو توحي بها، كي يتيقظ المتلقي لها أو يتعظ بها([14]).

2/ ملحمة الحيوان / ملحمة الوحوش:

يمكن تعريف هذا النوع من حكايات الحيوان، بأنه ضرب من المحاكاة الساخرة أو المعارضة البطولية الهزلية لما يعرف بالملحمة([15])، وتطور في الوقت نفسه لخرافة الحيوان؛ لذا فإن هذا النوع يفرض أسبقية الخرافة والملحمة عليه، يقول عبد الحميد يونس: "أما ملحمة الوحوش فتعد تالية في التطور للخرافة، وليس من شك في أنها جاءت محاكاة لذلك النوع الشائع المعروف بالملحمة"([16]).

وقد قدم هذا النوع نفسه في شكل فني خاص، مستعيرا سماته الفنية من الملحمة والخرافة معا؛ فمن الأولى مثلا استعار الأسلوب الشعري القصصي والبطولة المحورية والحجم الطويل، ومن الأخرى استمد شخوصه الحيوانية، وحقق من كليهما لنفسه نوعا من وحدة الموضوع([17])، التي تتسم بها سلسلة من الحكايات الحيوانية المتلاحقة التي تؤلف هذا النوع، فحمل رسالة الإنسان إلى الإنسان في إهاب الحيوان، موفرا قناعا موائما للنقد السياسي والاجتماعي والديني أيضا([18]).

ولأن هذا النوع يحاكي الملاحم العظيمة بأسلوب ساخر هزلي، فقد عُرف بـ"الملحمة الساخرة" أو "المعارضة البطولية الهزلية"([19])، على اعتبار أن المعارضة محاكاة أسلوبية لنص سام ونبيل لتطبيقه على موضوع

---

[13]– ينظر محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي، ص: 191.

[14]– ينظر لافونتين، أمثال لافونتين، ص: 6.

[15]– الملحمة: فن من الفنون الأدبية وهي قصيدة سردية بطولية خارقة للمألوف.

[16]– عبد الحميد يونس، الحكاية الشعبية، ص: 264.

[17]– ينظر الكسندر كراب، علم الفلكلور، ص: 123.

[18]– سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، ص: 37.

[19]– المرجع نفسه، ص: 40.

تافه وهابط[20] ولما يحمله هذا النوع من تعرض نقدي للإنسان وللأنظمة السياسية والاجتماعية والدينية؛ فقد وصف بأنه ضرب من "الأدب الرمزي" أو "الهجاء المستتر"[21].

وبما أن ملحمة الحيوان هي سلسلة شعرية طويلة، تضم مجموعة حكايات متلاحقة مؤلفة على لسان الحيوان؛ فإنني أرى أنه من الممكن أن نلحق بها منظومات "كليلة ودمنة" الشعرية في الأدب العربي، كمنظومة أبان بن عبد الحميد اللاحقي (ت200هـ)، ويخبرنا أبو بكر الصولي (ت335هـ) أن يحيى بن خالد البرمكي أشار على أبان بنظم "كليلة ودمنة" ففعل فكافأه، ويروي ابن المعتز أن منظومة أبان كانت في نحو خمسة ألاف بيت، وذهب الصولي إلى أنها في أربعة عشر ألف بيت، ولكنها ضاعت ولم يصلنا منها سوى خمسة وسبعين بيتا، رواها أبو بكر الصولي في كتابه "الأوراق"، وهي في مواضع مختلفة ومتفرقة من كتاب: كليلة ودمنة"[22].

الهدف من هذه الحكايات:

ذهب إحسان عباس إلى أن هذه الحكايات لا ترمي إلى إظهار عبرة خُلقية أو إعطاء مثال للسلوك فقط، بل يفترض أن يكون غرض هذا النوع من الحكايات إشارة إلى أن ما يجري في عالم الإنسان من ظلم وتجاوز وتهميش واستبداد، موجود مثله عند الحيوان[23].

كما أن الأصل في هذه الحكايات، هو إيجاد تفسير لظواهر كثيرة تتعلق بالحيوانات، أو الوصول إلى تفسير ظواهر طبيعية من خلال الحيوان، وأن هذه الحكايات تنجح في أحيان كثيرة في الكشف عن مواقف الإنسان الخُلقية، فالحكاية التي تظهر أن الغراب حلّت به اللعنة بسبب ثرثرته، تظهر استحسان الإنسان قلة الكلام وموقفه من الثرثرة[24].

والحقيقة أن تطور حكاية الحيوان ما هو إلا انعكاس لتطور الإنسان، وتقدم معرفته، ونضج رؤيته، ونمو مهارته وأسلوبه في عرض فكره وفلسفته، وأخيرا قدرته على التحايل في تقديم الواقع ونقده، ومعالجة أمراض المجتمع، والنفاذ إلى الساسة والحكام، والتوجه إليهم بالنصح والنقد، بأساليب وصيغ مختلفة[25].

---

[20]- ينظر محمد رجب النجار، حكايات الحيوان في التراث العربي، ص: 205.

[21]- ينظر مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، صص: 87، 210,

[22]- ينظر أبو بكر الصولي، أخبار الشعراء المسمى كتاب الأوراق، ص: 2.

[23]- ينظر المرجع نفسه، ص: 16.

[24]- ينظر المرجع نفسه، ص: 18.

[25]- ينظر المرجع نفسه، ص: 19.

لم يكن اختيار الحيوانات لتقمص تلك الأدوار التي تؤدي أغراضا تعليمية ونقدية بالأمر العبثي؛ فإذا كانت حكايات الحيوان قد حملت حكمة الإنسان ووعيه، فإن اختيار الحيوانات أو النباتات أو الجمادات كأبطال لهذه الحكايات، قد انطلق من وعي الإنسان وحكمته أيضا.

الحكمة من اختيار الحيوانات كأبطال لهذه الحكايات:

يمكن القول: إن الخوض في حكمة الاختيار هذه، يدفعنا إلى الخوض في الوظائف التي يؤديها هذا النوع من الحكايات بشكل خاص، وتؤديها حكايات الحيوان الأدبية بشكل عام.

ويمكن أن نعزو هذا الاختيار إلى الأسباب التالية:

1–تقديم الحكمة والموعظة والنقد الخلقي والاجتماعي في ثوب رائق قصصي جميل، يُنطق الحيوان ويسبغ عليه صفات إنسانية، واللجوء إلى هذا النوع من الحكايات نابع من وعي المفكرين والحكماء، وتأملهم الدقيق في النفس الإنسانية التي ترفض النصح، فإن هذا النوع ينجح في تقديم الحكمة والموعظة، ويحقق غاياته التهذيبية والتعليمية([26]).

2–توفير قناع موائم للنقد السياسي، هذا القناع يهيئ للمصلح أو الواعظ أن يتوجه بأفكاره ويوصلها إلى حيث شاء من ناحية، ويأمن بطش الحكام من جهة أخرى([27])، ومن الأمثلة على ذلك خرافات كليلة ودمنة، التي يجد فيها "كل سلطان أو وال لنفسه مثالا ويجني لنفسه درسا، لا بل نجد بعض الأبواب كباب الأسد والثور قانونا كاملا لتصرف الملوك([28]).

3–ويذهب الكاتب الألماني "ليسنج" إلى أن السبب في اختيار الحيوانات لتقمص تلك الأدوار؛ هو أن للحيوانات طباعا معروفة وعادات مألوفة لدى جميع الناس، في حين أن الرجال ليسوا معروفين إلا لدى أممهم أو من قرأ تواريخ حياتهم، لذلك فالذي يتحدث عن الذئب والحمل والأسد والثور؛ فكأنما يتحدث إلى الناس جميعا عالمهم وجاهلهم، ذلك أنهم ملمون بطبائع هذه الحيوانات([29]).

حكاية الحيوان في الأدب الإسلامي

يمكن القول: إن البحث في نشأة حكاية الحيوان في الأدب الإنساني القديم، يستدعي بالضرورة البحث في أصل هذه الحكاية وموطنها الأصلي، ولما كانت الخرافة هي النوع الأول لهذا الجنس الأدبي، وثمرة

---

[26]– ينظر سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، ص: 33.

[27]– ينظر المقدسي، كشف الأسرار عن حكم الطيور والأزهر

[28]– حنا فاخوري، تاريخ الأدب العربي، ص: 452.

[29]– ينظر حامد عبد القادر، القصص الحيواني وكتاب كليلة ودمنة في الآداب الشرقية والغربية، ص: 21.

أصيلة للحكاية الحيوانية، ومن ثمة تربة خصبة لنشوء الأنواع الأدبية الأخرى من حكايات الحيوان؛ فقد اقتضى البحث في أصلها ومنشئها، بحثا في أصل الخرافة وموطنها الأصلي، وقد تباينت مواقف الباحثين حول أصل الخرافة، إلا أن البحث في تاريخ الأدب القديم، قد أثبت أن أدب العراق سبق وجود الآداب الإنسانية الأخرى، لاسيما الأدب المصري واليوناني والهندي والعبري([30]).

أما الحديث عن حكاية الحيوان في الأدب الإسلامي فقد كان لها نصيب، إذ هناك بعض السور تحمل أسماء حيوانات، والقرآن نفسه يستوعب عددا من حكايات الحيوان، ويوظفها لغايات دينية، ووعظية.

والرسولﷺ يستخدم مثل هذه الحكايات لغايات مقاربة، فمما روي عنه، قولهﷺ: "بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها، التفتت إليه البقرة وقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكنّي خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تكلّم؟! فقالﷺ: فإني أؤمن وأبو بكر وعمر"([31]).

ومن ذلك أيضا ما رواه أبو هريرة عن رسول اللهﷺ، قوله: "بينما راعٍ في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة، فطلبه الراعي حتى استنقذها منه، فالتفت إليه الذئب، فقال: من لها يوم السبع([32])، يوم ليس لها راعٍ غيري؟ فقال الناس: سبحان الله! فقال رسول اللهﷺ: فإني أؤمن بذلك أنا وأبو بكر وعمر"([33]).

وتمدنا بعض دواوين الشعر الجاهلي ببعض خرافات الحيوان([34])، و"بقدر ما كان احتفاء الشعر القديم بخرافات الحيوان لغايات اجتماعية أو تربوية؛ جاء احتفاء القرآن الكريم بهذا الشكل القصصي لغايات دينية ووعظية –مثل قصة سليمان والهدهد، وقصته والنمل([35])–، الأمر الذي فتح أمام كتب التفسير مجالا واسعا لاستيعاب قصص الحيوان التي كانت ذائعة حتى ذلك الوقت([36]).

---

[30]– ينظر سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، ص: 54.

[31]– الإمام مسلم، صحيح مسلم، باب فضائل الصحابة، ص: 1051.

[32]– يوم السَّبُع : يوم في آخر الزمان ، ينشغل الناس فيه بالفتن عن أمور معاشهم حتى تعدو السباع على الغنم.

[33]– المصدر نفسه، ص: 1052. وانظر البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي، صص: 615، 620.

[34]– ينظر النابغة الذبياني، ديوان النابغة، ص: 154.

[35]– ينظر سورة النمل الآيات: 19، 28.

[36]– ينظر سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري، ص: 32.

الخاتمة:

الحكاية على لسان الحيوان، نمط قصصي ذو جذور بعيدة الغور في تراث الأمم والحضارات المختلفة، وهو نمط متعدد الأشكال، وأقدم أشكاله تلك الإجابات القصصية التي ابتدعها فكر الإنسان تفسيرا أو تعليلا لما عجز عن فهمه من سمات الحيوان أو النبات وخصائصه المميزة([37]).

ومن رحم هذه الحكايات خرجت أخرى، لم تكن سوى هذا النضج الذي أصاب فكر الإنسان، وذلك النمو الذي بدا على أسلوبه، وهذه الحكايات التي عرفت فيما بعد باسم "الخرافات"، نجحت في تقديم الحكمة والموعظة والإقناع والنقد في ثوب رائق شعري ونثري، كما تمكنت بإنسانية مضامينها، وبساطة بنيتها، ومعرفة شخوصها، من التّفلّت من حواجز الزمان والمكان واللغة والمعتقد، فقابلت كل عصر بالجدة ذاتها، والتقاها كل جيل بالانفعال نفسه([38]).

أما ثمرة ذلك اللقاء الذي جمع الخرافة بالملحمة فـ" ملحمة الحيوان"؛ وهي سلسلة شعرية مؤلفة من حكايات متلاحقة على لسان الحيوان، ولقد استعارت هذه بعض سماتها من الخرافة والملحمة معا، واحتفظت لنفسها بشيء من وحدة الموضوع، حاملة معها رسالة الإنسان إلى الإنسان، وموفرة كما الخرافة أقنعة ورموزا أدبية قادرة على التعبير عن القضايا المختلفة دون اصطدام بالسلطة أو المجتمع([39]).([40])

---

[37]-- ينظر سوزان نعيم أسعد الحلو، حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين الثالث والرابع الهجري (الخاتمة)، ص: 165.

[38]- ينظر المرجع نفسه، ص، ن.

[39]- ينظر المرجع نفسه، ص،ن.

[40]- للاطلاع على نصوص المحاضرة أنظر كل ذلك في حكايات الحيوان في النثر العربي "في القرنين (4/3) الهجري، لسوزان نعيم أسعد الحلو مذكرة ماجستير، الجامعة الأردنية، 2001.